المصدر: الدستور
التاريخ: ١٩٩٧/١١/١٩

السادات.. الصعود إلى الهاوية

الأحلام فى بلادنا مكانها الوحيد هو دواوين الشعراء وروايات القصاصين ستقول هذا لنفسك وأنت تحلم بالسادات المنتصر القوى وهو يتخذ من انتصاره سبيلا للقضاء على إسرائيل ولينشر الحرية والديمقراطية الحقيقية والعدل والمساواة فى بلاده هذا هو حلمك. المشروع والمستحيل. لكن ما حدث أن السادات تحول بعد الانتصار إلى فرعون كما قال لهيكل مرة «أنا وجمال أخر الفراعنة العظام فى تاريخ مصر» وقال لكارتر. رئيس أمريكا الجديد. «الناس ينظرون إلىّ على أننى خليفة لجمال عبد الناصر وذلك ليس صحيحا، فأنا لا أحكم مصر طبقا لأسلوبه، ولكن أحكمها طبقا لأسلوب رمسيس الثانى، وذلك ما يفهمه الشعب المصرى بطبيعته وما يريده» ولأن «الفرعون» يعتقد أن شعبه يريد كل ما يفعله، فقد أخذ يفعل كل ما يريده. هو. وأخذ يرتمى فى أحضان أمريكا شيئا فشيئا بدءا من رفع شعار تنويع مصادر السلاح إلى الانتقال بمصر من النظام العربى إلى نظام الشرق الأوسط الذى ترعاه أمريكا وتحركه لمصالحها. انظر تحليل هيكل لهذه الفترة. ولذلك فقد وصل الأمر إلى حد إزالة صور عبد الناصر من على مبنى السد العالى إرضاء لشاه إيران. الزميل الجديد فى نظام الشرق الأوسط والذى لم يكن يحب عبد الناصر، وبدأ المصريون. بما أوتوا من قوة هى التنكيت فقط. يتندرون على شعار السادات. «سأمشى على طريق عبد الناصر» مضيفين إلى الشعار كلمة «باستيكة». فى ذلك الوقت بدأت سياسات السادات الانفتاحية التى أعلنها بعد انتصاره والتى وصفها أستاذنا أحمد بهاء الدين وصفا بليغا هو «انفتاح السداح مداح» لتعتمد البلاد أكثر على المساعدات والمعونات والقروض ويزداد بشكل مخيف حجم الديون على مصر، وتجرى عملية تفكيك القطاع العام بخطط حديثة «وتنفتح» مصر. كما يرصد هيكل. أمام كل المغامرين من رجال الأعمال كما لم تكن «مفتوحة» قط منذ أيام اسماعيل ويتم تحويل البلد من منطق الاقتصاد المخطط إلى منطق السوبر ماركت. ويظهر تعبير «القطط السمان» على فم مسئولين فى الدولة وتتحول القطط إلى أبقار سمان. حسب وصف رئيس الوزراء ممدوح سالم.

وترتفع أسعار الأراضى العقارية فيعلق السادات أن «مصر ارتفع ثمنها وبقى لها قيمة». ويزداد نفوذ صندوق النقد والبنك الدولى، ويزداد الفقراء فقرا والأغنياء غنى. يصبح فى مصر وقتها حوالى ٣٠٠ مليونير فى زمن قياسى. ويقدم صندوق النقد الدولى «طلباته» بزيادة أسعار بعض السلع الضرورية ويحاول بعض الوزراء الوقوف أمام الأمر، لكن الاقتصاد المصرى الذى تحول إلى اقتصاد موجه من واشنطن. والسياسة كذلك. تجعل مجلس الوزراء، يوافق فى ١٧ يناير ٧٧ على رفع أسعار ٢٥ سلعة ضرورية، لينفجر الشعب من الإسكندرية إلى أسوان ويفاجأ السادات بالانتفاضة التى اضطرته لأن يهرب من استراحته فى أسوان خوفا من غضب الجماهير فى مشهد مهين ومرير، وظهرت صور عبد الناصر فى

المظاهرات فزادت الإهانة والمرارة، ورغم تراجع الحكومة عن قراراتها إلا أن الغضبة لم تدفع الفرعون للعودة إلى وعيه بل زادت من ابتعاده عن شعبه ليصف الانتفاضة بأنها «انتفاضة حرامية»، وليهرب هروبا نهائيا إلى أحضان الحبايب، وكما يقول هيكل فإن المؤكد أن انتفاضة يناير ٧٧ هى التى كانت وراء مبادرة السادات فى نوفمبر ٧٧.

بعد المظاهرات قام السادات باستفتاء على مقترحات ديكتاتورية تحت عنوان «حماية أمن الوطن والمواطنين» وكانت النتيجة ٩٩,٤٢٪ يعنى الشعب كله إلا ٣٠ أو ٤٠ واحدا. بعدها ذهب السادات لزيارة كارتر الذى استقبل بعدها بيجين رئيس وزراء إسرائيل الجديد. وفى أغسطس ٧٧ ينقل سيروس فانس لسه قاعد لغاية دلوقتى. نتائج الزيارة إلى السادات، وبعد لقاءات للسادات مع الملك الحسن والشاه ولقاءات سرية لموشى ديان مع الملك حسين والملك الحسن يتم ترتيب لقاء سرى بين ديان وحسن التهامى. السياسى المصرى الغامض يسافر السادات إلى رومانيا فى ٢٩ أكتوبر ٧٧ ليسأل رئيسها تشاوشيسكو وثيق الصلة بإسرائيل عن حقيقة رغبة بيجين فى السلام، ويبدأ السيناريو يتشكل شيئا فشيئا فى ذهن السادات. يقول السادات فى «البحث عن الذات» إنه تلقى خطابا خاصا مختوما بالشمع الأحمر من كارتر قبل المبادرة بشهرين وينفى أن الخطاب تضمن طلبا من كارتر للقيام بالمبادرة لكنه لا يفصح عن مضمون الخطاب بوصفه خطابا شخصيا ويؤكد أن كارتر لم يطلب منه هذه المبادرة لأنه كان يعلم بوجود حاجز نفسى رهيب وصفه السادات بأنه حاجز مرجانى ضخم، ويقول السادات إنه وجد ما تعلمه فى الزنزانة ٥٤ فى سجن

مصر . بادى الزنزانة ٥٤ . بعده بقوة وطاقة جبارة على التغيير الجوهرى لاعتبار العرب أن اسرائيل موضوع مشحون. وإلى جانب الموقف النفسى الذى تبلور فى أعماق ذاته داخل الزنزانة ٥٤ فإنه قرر أن يكسر هذا الحاجز. وفكر فى زيارة القدس وأعلن تفكيره لوزير خارجيته اسماعيل فهمى « لم تستطع أعصابه تحمل المبادرة واستقال مسكين». هكذا وصفه السادات كان السادات يفكر فى دعوة ٥ رؤساء كبار لحضور زيارته للقدس التى قرر أن تكون فى عيد الأضحى ليصلى فى المسجد الأقصى ثم يزور كنيسة القيامة. لكنه وجد فكرة حضور الخمسة الكبار صعبة فقرر أن يقوم بالمبادرة لوحده. وفى خطابه فى مجلس الشعب يوم ٩ نوفمبر ٧٧ أعلن أنه مستعد للذهاب إلى آخر العالم حتى الى الكنيست إذا كان ذلك سيحقق أهدافنا. وصفق جميع الحضور ومنهم ياسر عرفات على أساس أن هذه مبالغة خطابية. وزار السادات سوريا ليسأله الأسد عن حقيقة ما قاله ويفاجئه السادات بأنه يعنيه بالفعل وبعد مناقشة ٤ ساعات انفصل الاثنان بلا رجعة ليذهب السادات إلى إسرائيل بينما المسلمون جميعا متعلقة أبصارهم وقلوبهم بجبل عرفات حيث وافقت الزيارة يوم وقفة عرفات لتنزل الدعوات كالأمطار على السادات الذى كان مبهورا بكاميرات التليفزيونات الأمريكية والأوروبية التى تابعت زيارته خطوة بخطوة ويروى السادات تفاصيل زيارته

كما يذكر ياسمان موقف الرئيس السودانى جعفر نميرى الذى زاره بعد عودته من إسرائيل ويتذكر كيف زاره بعد ثورة مايو. نفس الامتنان سنجده فى كتاب نميرى عن «السادات المبادئ والمواقف. ولن نتعجب أبدا فأنت تعرف دور نميرى المشبوه فى عملية تهريب يهود الفلاشا إلى إسرائيل

وعاد السادات من القدس ليقول لاحمد بهاء الدين «إننى أرتى لكم جميعا. لم يعد لديكم ما تقولونه أو تكتبونه. لقد فقدتم الموضوع الذى عشتم عليه سنوات طويلة « وعندما سأله بهاء عن القدس قال له «القدس فى جيبى». وبهذا المنطق تصرف السادات خلال رحلة المفاوضات التى بدأت بوفد مصرى سافر إلى القدس ثم مؤتمر ميامى هاوس الفاشل الذى لم يحضره سوى إسرائيل ومصر وأمريكا وظلت مقاعد الفلسطينيين فيه خاوية ثم مؤتمر الاسماعيلية الأشد فشلا. وقتها عين السادات رفيقه القديم محمد ابراهيم كامل وزيرا للخارجية دون علمه. بل أراد أن يكون خلفه يمين محمد كامل فى حضور بيجين ليرفض محمد كامل ويظل على موقفه حتى يتحقق طلبه

على الصعيد الداخلى كان السادات قد قرر اتباع سياسة خاصة به سماها معارضوه «ديمقراطية المفرمة». كان أبرز مظاهرها قانون العيب الذى فصله

تزوية القوانين على مقاس السادات لتأديب معارضيه عن طريق منصب المدعى الاشتراكى الذى استحدثه السادات فى ٧١. وحرصا منه على استكمال «الشكل» الديمقراطى قرر تشكيل ما أسماه بالمنابر السياسية الثلاثة - اليمين والوسط واليسار - وسرعان ما حولها هو بنفسه إلى أحزاب، رأس هو أحدها وهو حزب مصر ثم حول اسمه - منه لنفسه - إلى الحزب الوطنى، وليقول لأعضاء مجلس الشعب فى تصور فريد من نوعه لدور القانون «كل شئ بالقانون وإذا لم يعجبنى القانون سألجأ إليكم لتغيروه». وفى رد على صحفى أجنبى قال له «لولا الديمقراطية لضربتك بالرصاص». وهو الذى قام بمذبحة مجلس الشعب عندما أسقط العضوية عن ٤ من أبرز أعضائه - وهى القضية التى تحدث عنها الكاتب جمال سليم بالتفصيل فى كتابه ديكتاتورية السادات - .ولجأ إلى لعبة الاستفتاءات ليغطى كل قراراته، وكما يرصد عبد الله إمام فإن استفتاء ١٠ فبراير ٧٧ جاءت نتيجته ٩٩,٤٣/ رغم أنه تلا مظاهرات شعبية عارمة، أما استفتاء العزل السياسى فقد جاءت نتيجته ٩٨,٢٧/ وكانت نتيجته حل حزب الوفد لنفسه، وعندما أسفرت المفاوضات عن معاهدة كامب ديفيد والتى فضحها محمد ابراهيم كامل وزير الخارجية الذى استقال قبل توقيع الاتفاقية فى كتابه الشهير «السلام الضائع فى كامب ديفيد»، جاءت نتيجة الاستفتاء الذى أجراه السادات فى أبريل ٧٩ تدعى الموافقة بنسبة ٩٩,٩٣/. وكل ذلك والشارع المصرى يغلى، ونتائج مغازلة السادات للجماعات الإسلامية ليضرب بهم اليسار بدأت تؤتى ثمارها تطرفا متزايدا وفتنة طائفية غريبة على الشارع المصرى، وعندما أصبح التطرف الدينى وحشا كاسرا - بعد تربيته فى مزارع السادات وبمباركة من رموز نظامه عثمان أحمد عثمان ومحمد عثمان اسماعيل وغيرهما وبمساندة من السعودية والملك فيصل - حاول السادات السيطرة عليه فلم يفلح، وانقلب السادات على الإخوان بعد مناظرته الشهيرة مع عمر التلمسانى عام ٨٠ والتى شكاه التلمسانى فيها إلى الله، لكن الأمر كان أكبر من الإخوان فقد كانت هناك جماعات إسلامية سرية تعمل تحت الأرض، وكان السادات قد لمس بعض ثمارها فى قضية الفنية العسكرية وقضية اغتيال الشيخ الذهبى لكنه كان غافلا عن أن الأمر أكبر من صالح سرية وشكرى مصطفى قائدى هاتين العمليتين وكان واضحا أنه لا يعرف شيئا عما يحدث فى مصر

وكما يؤكد هيكل فإن «السادات مع بداية سنة ٨١ كان قد أصبح فى عزلة كاملة عن الحقائق المحيطة به، ولم يكن على استعداد أبدا للاعتراف بفشل مبادرته وبخطأ الصلح المنفرد مع إسرائيل، بل إنه حاول تصوير عزلته على أنها فضيلة أو خلوة وزاد اهتمامه

بتجديد قصوره والإنفاق عليها وأخذ يتفنن فى اختراع مناسبات لتسليط الأضواء عليه وعندما ضاعت الحدود بينه وبين الدولة وأصبح هو الدولة أخذ يتصرف فى الآثار المصرية كما شاء ليهديها لأصدقائه من الرؤساء وغيرهم، كما تفتق ذهنه عن فكرة تقديم فرع من النيل هدية لإسرائيل وفكرة بناء مجمع للأديان فى سيناء، وأخذ يقضى - وحيدا أو بصحبة رفيق وحيد - ساعات بعد ساعات أمام الفيديو ليشاهد أمجاده، وبدأ فى مواجهات لفظية مع البابا شنودة، توجت بانفجار أسوأ حوادث الفتنة الطائفية فى الزاوية الحمراء فى يونيو ٨١، وزاد نشاط خطباء المساجد مثل الشيخ كشك والشيخ المحلاوى والشيخ عيد، وأخذ الغضب يعلو فى كل مكان وكان السادات غاضبا بل لعله كان أكثر الكل غضبا. وفى رحلته لواشنطن - الأخيرة فى حياته - كان مزاجه سيئا معظم الوقت، وعاد من الرحلة ليعلن فى ٣ سبتمبر حملة اعتقالات واسعة لأهم المثقفين والسياسيين المصريين من كل الاتجاهات والتيارات السياسية، وفى خطابه أمام مجلس الشعب قال إن ما فعله كان ضروريا لحماية وحدة وأمن البلاد، بل وأجرى استفتاء على اعتقاله لـ ١٥٣٦ سياسيا وإغلاقه ٦ مجلات وحل جمعية دينية ونقل ٦٥ أستاذا جامعيا و ٦٣ صحفيا إلى وظائف أخرى وإلغاء تعيين البابا شنودة . وكالعادة كانت النتيجة ٩٩,٥١٪ أيضا

لقد حاولت فى السطور السابقة أن أختصر ما فعله السادات منذ أن حدثت انتفاضة يناير ٧٧ والتى كانت إعلانا لنهاية السادات ثم جاءت اتفاقية كامب ديفيد لتعلن موته الحقيقى ورغم أن الوقائع والأمثلة والمآسى تعجز عن حصرها الصفحات إلا أن الخلاصة أن كل ما فعله السادات كانت له نتيجة منطقية واحدة، حتى لو رفضناها باعتبارها عنفا غير مبرر فإنها كانت تحصيلا حاصلا وتطبيقا لنظرية «الضغط يولد الانفجار»، والانفجار كان هذه المرة على يد خالد الإسلامبولى ورفاقه لتنتهى - جسديا - قصة السادات التى مازالت مسيطرة حتى الآن على أذهان المصريين بآلامها وغموضها وآثارها

بلال فضل